الفروسية العربية

هل كان لدى العرب فروسية على نمط الفروسية الغربية ، وبعبارة أخرى هل كانت لديهم هيئة اجتماعية منظمة ذات قواعد وقوانين وطقوس خاصة تهدف إلى غاية محددة ؟ ومتى كان قيام تلك الهيئة ؟ أكان سابقاً لتأسيس الفروسية الأوربية أم لاحقاً إياها ؟ لقد اعتمد « هامر بورجستال » فى دراسة علمية نشرتها « الصحيفة الأسيوية »[١] له فى هذا الصدد — على ذلك الأثر الذى يحيي استبسال على بن أبى طالب عقب غزوة أحد ونصه : «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على » فاستدل به على أن الفروسية كانت معروفة قبل محمد[٢] . وقد بنى « هامر» استدلاله هذا على ترجمته لفظة « فتى » بكلمة « فارس » . والحق أن كلمة « فتى » تعنى بطلا كبير القلب شديد البأس ، ولم تصبح مرادفة لكلمة « فارس » إلا بعد انقضاء زمان طويل ، أى نحو القرن الثانى عشر ، حينما عرف الشرق الفروسية ؛ وهكذا أخطأ « هامر » فى الصعود بالفروسية العربية إلى ما قبل القرن السابع .

---

(١) الصحيفة الأسيوية (Journal Asiatique) مجموعة سنوات١٨٤٩ — ١٨٥٥ ، مقالات Hammer Purgstall عن « فروسية العرب السابقة لفروسيةأوربا وأثر الأولى فى الثانية » .

(٢) كانت الفروسية موجودة قبل الإسلام ، لا شك فى ذلك . ولكن هذا الاستدلال خاطىء لأن واقعة أحد كانت فى أيام النبى . (تحقيق)

ويؤرخ « فورييل » أقدم آثار الفروسية الاجتماعية والفروسية الدينية بما نجده لدى عرب الأندلس ، فهو يقول : « يرجع فرسان المعبد (Chevaliers du Temple) وفرسان « ملجأ بيت المقدس » (Hôpital de Jérusalem) — وهم الذين يمكن أن يعتبروا أشد أتباع الفروسية الدينية ورعا ونظاما — إلى أوائل القرن الثانى عشر (نحو سنة ١١١٥) . وقد عرف أهل القرن السابق من عرب الأندلس هيئات من الشرطة الدينية نظمت لأداء نفس الغرض وبطريقة مماثلة ، وأطلقوا عليها اسم « الرابطين »[١]

وأما الفروسية الاجتماعية ، فمن المحقق أيضاً أنه قد كان لدى العرب منظمة ما من هذا القبيل وهى التى اتخذت فيما بعد نموذجا ولا شك »[٢].

وتعتمد حجة « فورييل » فيما يتعلق بالفروسية الدينية على ملاحظة صاغها « كوند » (Conde) فى هذه العبارات : « كانت حياة المسلمين « الرابطين » أى خفر الحدود ، حياة شظف ؛ فقد كانوا يقفون أنفسهم طواعية للتدرب المتصل على الأسلحة ، وكانوا يؤدون فرضا تعهدوا بأدائه ، هو الذود عن حدودهم ضد المقاتلين المسيحيين . لقد كانوا صفوة الفرسان ، وذوى جلد كبير وقدرة على احتمال المكاره ، وما كانوا ليركنوا إلى الفرار أبدا ، بل لقد ألزموا أنفسهم القتال والاستبسال حتى الموت دون أن يغادروا مواقعهم . ومن المحتمل أن تكون قد تشكلت على مثال هؤلاء

---

(١) فورييل تاريخ الشعر البروفنسى ، الجزء الثالث ، ص ٣١٢ وما يليها .

(٢) فورييل : المرجع السابق ، ص ٣٢١ .

الرابطين – فى أسبانيا وبين مسيحيي المشرق – تلك المنظمات الحربية التى اشتهرت بشجاعتها وبالخدمات التى قدمتها للمسيحية . فهناك تشابه كبير بين المنظمتين » . وفضلا عما ينبغى من عدم الاعتداد كثيرا بكلام « كوند » ، فإن هذا النص الوحيد الذى اعتمد عليه « فورييل » لا ينبئنا بشىء عن تنصيب فرسان « الرابطين » ولا عن تشكيل جماعتهم ، فلا يمكن إذن أن يقوم دليلا على أن فرسان « المعبد » و « الملجأ » قد تشكلوا على هيئة جماعة الرابطين . بل إن أقصى ما يمكن أن يدلنا عليه حديث كوند هو القول بإمكان قيام منظمات معينة فى عصور معينة لدى شعوب مختلفة كلما تشابهت الظروف .

وأما فيما يختص بالفروسية الاجتماعية فإن فورييل لا يتحدث عن وجودها إلا على أساس من الاحتمالات قائلا « لعلها وجدت ، بل لا بد أن تكون قد وجدت » . أجل ، لقد وجدت لكن فى الأخلاق والعواطف ، لا على شكل منظمة .

على أن هناك – فيما كتبه الأدباء العرب – ذكرا لفروسية منظمة ، تتضمن حفل تنصيب رسمى يقام باسم الأمير أو باسم الزعيم الدينى ، كما تتضمن ولائم وألعابا وأفراحا . وأما لباس الفارس ، أو « الفتى » ، فيتألف من قميص وسروال « هو رمز التفوق » . وتتلخص امتيازات أولئك الفتية على سواهم فى حق « إطلاق الرصاص وصيد الحمام الأصيل[1] » .

---

(١) انظر تاريخ أبى الفدا سنتى ٥٦٨ و ٦٢٣ ، تاريخ الحرب الصليبية . عهد=

أفهذه هي الفروسية العربية التي اقتدت بها الفروسية الغربية ؟ ولكنها لا ترجع إلا إلى تاريخ القرن الثاني عشر ، حيث ورد ذكرها للمرة الأولى في مقام الحديث عن الملك الناصر (١١٨٠ – ١٢٢٥) . هذا إلى أن عادة « شرب نخب الخليفة في كأس الفروسية[1] » عند تنصيب الفارس الجديد ، تقليد ينم عن أصل أوربي للمنظمة ؛ فقد كانوا في الشرق لا يشربون إلا الماء ، ويشربونه بطريقة أقل احتفاء و رمزا . . . صحيح أن المؤرخين العرب في العصور الوسطى يرجعون بأسس فروسيتهم إلى الخليفة علي بن أبي طالب ؛ إذ نقرأ في « عمدة الطالب » أن امتياز منح مرتبة الفروسية قد انتقل رأساً من الخليفة علي إلى « سلمان الفارسي » ، ومن بعده ، خلال آخرين ، إلى « أبي مسلم » وهكذا . . . وكانت الرسائل التي يوجهها السلاطين إلى الأمراء الأجانب تشير إلى ذلك الأصل الرفيع ، في مثل قولهم « من السلطان الذي ورث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شرف الفروسية ومجد النسب العريق ... »[2] ولكن لا ينبغي

= الناصر لدين الله . وراجع عدة مؤلفين ذكرهم « دوزي » ، قاموس أسماء الملابس عند العرب ص ٣٩٩ ولكاترمير (Quatremère) ترجمة المقريزي ، التعليقات الواردة ص ٥٨ ، ٥٩ .

(١) راجع مقالات « بورجستال » المذكورة .

(٢) انظر في ترجمة كاترمير للمقريزي التعليقات الواردة في ص ٥٨ . ويذكر « مفضل بن أبي الفضائل » ان امتياز منح الفروسية قد انتقل من علي إلى سلمان الفارسي إلى علي التورقي إلى الحافظ الكندي إلى « عوف الغساني إلى أبي الإزان النقيب إلى أبي مسلم الخراساني إلى هلال النبهاني إلى جشم الفزاري ، إلى الأمير حسن ، إلى أبي الفضل القرشي ، =

أن نفسر هذه الإشارة بأكثر من رغبة المعاصرين ورغبة خلفهم فى أن يحيطوا تلك المنظمة الجديدة بهالة من الجلال والعظمة ، فإن نسبتها إلى أصل قديم إسلامى مجيد إنما يضفى عليها فى أعين الجميع قدراً أسمى ومظهراً أبهى . إلا أننا فى الواقع لا نجد وثيقة واحدة – فيما نعلم – تذكر منظمة للفروسية قبل القرن الثانى عشر . ولسنا نقف فى كتابات الشعراء والناثرين القدامى على أى أثر لمنظمة فرسانية ما ، ولو قد وجدت – ولو زمنا يسيرا – لكانت خليقة بأن تجتذب انتباههم وأن تغذى إنتاجهم الأدبى .

على أننا ينبغى أن نلاحظ أن الصوفيين – لنحو مائة عام[1] قبل تأسيس الفروسية العربية – قد درجوا على استخدام لفظى « الفتى » و « الفتوة » فى كتاباتهم ، لا بمعنى « المقاتل » فقط – وهو المعنى الجارى حتى ذلك الحين – ولا بالمعنى الفرسانى أيضاً – وهو الذى أضافه الملك الناصر إلى لفظ « الفتوة » – بل بمعنى آخر . يقول محيى الدين بن العربى[2]

إلى قائد شبل أبى المكارم ، إلى فضل الرقاشى ، إلى أبى الحسان نجار ، إلى الملك أبى القاالنجار ، إلى روزبة الفارسى . . . إلى المعز . . . إلى عبد الجبار ، إلى الخليفة الناصر » .

راجع فى Patrologia Orientalis ، الجزء الثالث ، تاريخ السلاطين المماليك لمفضل ابن أبى الفضائل ، النص العربى الذى نشره وترجمه إلى الفرنسية إ . بلوشيه (E. Blochet) ص ٤٢٦ و ٤٢٧ .

(١) انظر فى كشف الظنون : كتاب الفتوة للشيخ عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٣ وفضل الفتيان الخ .

(٢) محيى الدين بن العربى : الفتوة المكية . مخطوط بدار الكتب بباريس رقم ١٣٣٦ الفصل ٤٢ ، ورقة ٧٨ « فى معرفة الفتوة والفتيان » .

(٥٦٠ — ٦٣٨ هـ .) إن « الفتوة » من عمر الإنسان هى الفترة الواقعة بين الثامنة عشرة والأربعين ، وفيها تكتمل قوة المرء وصفاته الكريمة ، وإن « الفتى » يستخدم قوته فى سبيل الله وفى نصرة الضعيف ، عافياً عن أعدائه ، موفيا بعهوده ، زاهداً فيما قد يكون له من حقوق خاصة ، وإنه لرجل يكثر حساده ولكن لا يعاديه أحد . . ولقد كان « إبراهيم » فتى ، فما تردد فى تحطيم الأصنام ليقوض الباطل ويقيم الحق .

ولسنا نتصدى هنا لشرح مذهب الصوفية ، ولكننا نستطيع أن نقول : إن المتصوفة المسلمين قد أنشأوا منذ القرن الحادى عشر هيئة ذات قواعد صارمة وزى خاص هو رداء من صوف — ومنه كان تلقيبهم بالصوفية — أسموه « لباس الفتوة » .

ولقد أورد الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ .) ما قيل عن أصل الفتوة وما يرمز إليه لباس الصوفية ، فيما أثبته من أن الصادقين قالوا إن الفتوة شعاعة من النبوة واستدل على ذلك بحديث أسند للنبى صلى الله عليه وسلم نحيل القارئ عليه فى كتاب الغزالى[1] .

ومن المحتمل أن يكون مستشارو الناصر قد طبقوا هذا المذهب على

---

(١) الغزالى : انظر المخطوطة رقم ١٣٣١ بدار الكتب بباريس ، ظهر الورقة رقم ١٧٧ .والغزالى اسم كاتبين أخوين صوفيين ، أشهرهما الأكبر محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ ، وأما أصغرهما فقد توفى سنة ٥٢٠ ، وقد يكون الكتاب المذكور من مؤلفات أحمد ، ما لم يكن منحولا .

هيئة الفرسان ؛ فقد استعاروا على أى حال من الصوفية لفظى « الفتى » و « الفتوة » وفكرة الكساء الرمزى « لباس الفتوة » ، والقائمة التاريخية لأصحاب « الفتوة » . وتنم هذه الاستعارات عن إرادة معقودة على إحداث خلط بين جماعة دينية قديمة قد ذاع صيتها ، وبين منظمة حربية حديثة كانت نقيصتها الأصلية أنها منقولة عن مثال أجنبي . لذلك يجب أن نحذر من الاعتماد على كتابات الصوفيين — وهى ذات غرض آخر — فى البحث عن أصل للفروسية العربية أقدم من عصر الملك الناصر . وما كان لنظام الفروسية العربية أن يصبح مثالا للفروسية الأوربية ، لأنه لا يرجع على وجه التأكيد إلا إلى أواخر القرن الثانى عشر .

ونعتقد أن العرب لم يستطيعوا وما كانوا ليستطيعوا أن ينشئوا من تلقاء أنفسهم منظمة للفروسية . وفيم إنشاء فروسية دينية والإسلام نفسه يمكن اعتباره حكومة إلهية واسعة ، ومنظمة للفروسية شامخة ، على رأسها سيد كبير هو الخليفة ، وتحت إمرته ألوف من الفرسان يقاتلون فى سبيل الله وإعلاء كلمته[1] ؟ وفيم إنشاء فروسية اجتماعية ؟ ألم يكن العرب فرسانا على السليقة ؟ وكيف يمكن أن نتصور وجود منظمة ذات امتيازات لديهم ونحن نعلم أن العرب كانوا ينكرون الفروق الاجتماعية ولم يعرفوا يوما الامتيازات أو الألقاب ؟ لقد منعهم حرصهم على حريتهم من سن قانون يشكل الحياة ويخضعون له ؛ وكان رجال القبيلة الواحدة « إخوة » ،

---

(١) انظر فرنسيس شارم (F. Charmes) : الجامعة الإسلامية ص ١٥٤ .

فما حاجتهم بعد ذلك إلى الارتباط بعهود ومراسيم دينية ؟

على أن ذلك لا يعنى أن الأحلاف لم تعرض فى حياة العرب ، بل كانت توجد لسبب خاص ولزمن محدد ، وآية ذلك حلف الفضول وخلاصته « أن هاشما وزهرة وتيما دخلوا على عبد الله بن جدعان فتحالفوا بينهم على دفع الظلم وأخذ الحق من الظالم فلا يتركون عنا. أحد فضلا يظلمه أحدا إلا أخذوه له منه »[1] وكان ذلك فى عام ٥٨٠ .

ومهما تكن مروءة الغرض الذى ابتغاه « حلف الفضول » ، فإنه لا سبيل إلى مقارنة جماعته بمنظمات الفروسية ، ولا إلى إطلاق نعت الفرسان — فضلا عن ذلك — على أتباع تلك المذاهب وتلك الجمعيات السرية التى انتشرت منذ أوائل عصر الإسلام ومزجت بين أطماع السياسة وتعاليم الدين.

وعلى ذلك فإنه يصبح من المقرر إذن أن الفروسية العربية لم تتخذ — قبل القرن الثانى عشر — شكل منظمة ، كالفروسية الأوربية ؛ وإن كانت موجودة بالفعل فى أخلاق القوم منذ أقدم العصور . لقد سبقت المنظمة الأخلاق فى أوربا ، على حين لم تظهر المنظمة لدى العرب إلا متأخرة ، وذلك عندما أخذت عواطف المروءة فى الضعف . ويبدو أن تبادلا فى الأفكار والعواطف قد تم فى القرن الثانى عشر بين الشرق والغرب : فقدم الغرب الهيكل أى النظام الذى كان خليقاً بأن يسند

---

(١) الفيروز أبادى : القاموس المحيط ج ٤ ص ٣١ .

تقاليد العرب النبيلة ، وقدم الشرق مقابل ذلك حضارة مرهفة ، وفهما عميقا رقيقا للفضيلة ، فأزهرت بذلك أبهة الفروسية الأوربية .

* * *

والآن فلنحاول الكشف عن أصل فروسية العرب ومنبع مروءة البدو . وسنجد أن ذلك هو طبيعة البيئة وفطرة القوم . لقد ألحت على العربى حاجات العيش فى بيئة شديدة الجدب فدفعته إلى النشاط والبراعة والجرأة . ولم تسد الروح الحربية مكانا كما سادت بلاد العرب ، لأن الحرب — بما تتيحه من غنيمة — كانت صناعة البدوى الوحيدة ، ولم يكن للعربى أن يعتمد إلا على نفسه ، فأحس بقوته واشتد إحساسه بكرامة الإنسان . وإذ كان لا يعيش فى يومه إلا ليومه ، من الصيد ، والسلب ، ونتاج إبله القليلة ، فقد اعتاد أن يستخف بالثروة ، وأن يجود بكل ما يملك — ولا سيما وهو يعرف أيضاً أن كل ما يملكه معرض لأن تسلبه إياه يد ناهبة . ولم يكن ثمة ما يشتت عاطفته ، فركزها بتمامها — كما ركز أطماعه — حول نفسه وحول عائلته وحول حصانه وأسلحته . وهكذا كانت ثروة العربى هى شهرته وعائلته وحصانه وأسلحته .

أما عائلته فقد كان من واجبه أن يسهر عليها ، وأن يغسل بالدم أى عار يلحق بواحد من أبنائها أو أبناء عشيرته ، فإذا قضى وهو يؤدى ذلك الواجب ، انبرت سلالته — ولدا بعد ولد — لا تغمد سيفها حتى

تثأر لدمه ويعلن الموتى رضاءهم[1] .

وأما أسلحته فإنها لم تكن لديه وسيلة عيش وضمان حق فحسب ، بل لقد كانت إلى جانب ذلك أيضاً أداة زينة ومتعة ؛ فهو ينتشى باستخدامها فى ساحة القتال وغمار المعارك ، ويتغنى بحب الرماح الطويلة المرنة والسنان اللامعة الناهلة :

« كأن سيوفنا منا ومنهم   مخاريق بأيدى لاعبينا »

ولقد أحب العربى جواده بوجه خاص ، فدربه وهذبه وعلمه ، واتخذ منه رفيقا وفيا وصديقاً ذكياً .

ولما كان النضال من أجل الحياة يدفع العربى إلى تحسين أدواته وأسلحته وجياده ، فقد دفعه ذلك بطبيعة الحال إلى تحسين نفسه ، فحرص على أن يكون جديرا بما يقتنى من أسلحة كما تكون أسلحته جديرة به ، وأن يكون أهلا للجواد الكريم الذى يمتطيه . ومن هنا ساد الاتساق بين الجواد والأسلحة والفارس ، وغدا الجواد الكامل والأسلحة الكاملة وقفا على « الفارس » ، أى الرجل الكامل ، لأن الكمال يستدعى الكمال .

ولما كان العرب جميعا متساوين ، فقد سعوا كلهم إلى التميز والتفرد بوفرة فضائلهم وتنوع مآثرهم ، وإلى أن يتفوق بعضهم على بعض بما يخلد مناقبهم ومفاخرهم . وانتهوا إلى توجيه جهودهم نحو غرض واحد ، وإلى

---

(١) كان العرب يعتقدون أن الرجل إذا قتل ولم يثأر له ، خرج من رأسه نوع من البوم لا يمسك عن الصياح على قبره « اسقونى » حتى يثأر له أهله (شهاب الدين الأبشيهى) .

استخدام طاقتهم فى سبيل غاية واحدة ، وإلى تركيز مطامعهم فى هدف واحد ألا وهو « حسن الذكر » عن طريق أفعال جليلة — لا تضارع — فى ميدان الخير . يقول المؤرخ الصفدى : « لم يكن للعرب من دواعى الفخر إلا السيف والقرى والفصاحة » ؛ فكان أن جرت فى بلاد العرب شبه مباراة لا آخر لها فى ميدان المروءة ، وعلو الهمة ، والكرم الخيالى . وتحت أنظار « الفتيات » — فارسات البادية الحسناوات — وتحت أنظار الشعراء العارفين بجمال الجرس والصادحين بقصائد الفخر ، انطلق الفرسان العرب طوال عدة قرون إلى ساحات البطولة . ولقد كانوا يهبون فى وقت واحد لصولة السلاح وجولة المروءة ، للتحدى فى السباق وفصاحة اللسان ، والمفاخرة بشرف الحسب والنسب ووقائع الجود والبذل . وكانت تلك المواقف تؤثر فى الحاضر والمستقبل ، فى الأحياء والأموات ؛ لأن فوز المتبارى كان ينعكس على قبيلته بأسرها مجدا خالدا ، كما يلحق هوان الهزيمة كل من ينتمى إليه .

لقد كان العرب جميعاً شعبا من الشعراء والمقاتلين ، وقد قسموا حياتهم إلى شطرين : فشطر للحرب ، وآخر للتجارة والصراع السلمى فكراً وشعراً . ومن تلقاء أنفسهم ، ودون تدخل أى سلطة — فما كانوا ليعترفوا بسلطة قط سوى سلطة ما ينطقون به من كلام — اتفق أفراد تلك القبائل الهائمة على وقف القتال فيما بينهم ، وقيام هدنة تدوم أربعة أشهر

في السنة[1] . ولم تكن بهم من حاجة – في سبيل المحافظة على هذا العهد الذي قطعه الجميع من أجل الصالح العام – إلى التهديد بالحرمان من كنيسة ، أو إلى حرس خاص كما حدث عند فرض « هدنة الرب »[2] . وفي أثناء تلك الهدنة – التي يمتنعون فيها عن الاعتداء أو طلب الثأر – كانت تنعقد كل عام ولمدة شهر ، سوق عكاظ المعروفة ، يهرع العرب إليها من كل حدب وصوب ويلتقي فيها السادة والتجار والشعراء كأنهم في مباراة تتناظر فيها الثروة والفضائل وبعد الصيت وجودة الشعر ، وثمة رجال ما زالت تنزف جراحهم ، ورجال يريدون ثأراً أو يخشون ثأراً ، يفرضون الصمت على بغضائهم[3] . وكانوا يضعون أسلحتهم ، حين

---

(١) اعتمد المؤلف على ما جاء في كتاب كوسان دي برسفال : مقالات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ، ص ٢٤١ ، من أن الهدنة كانت لدى عرب الجاهلية أربعة أشهر يقفون فيها الأعمال العدائية مما أدى إلى تأمين التجارة في تلك الفترة وحال دون تفاني بعض القبائل . والصحيح أن الهدنة كانت في العصر الجاهلي شهراً واحداً وهو المحرم ، وقد جعلها الإسلام أربعة أشهر وأضاف إلى المحرم رجب وشعبان ورمضان . سورة التوبة ، ٣٥ : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم » . (المترجم)

(٢) وقد ذهب « مجمع تولونج سنة ١٠٤١ » إلى أبعد من ذلك إذ فرض وقف القتال في أثناء الأعياد وأيام الآحاد والصوم وفي النصف الثاني من كل أسبوع . . . ولتنفيذ قرارات المجامع أنشيء في القرن الحادي عشر جمعية للسلام في كل منطقة يرأسها الأسقف ، وكان لها صندوقها ومحكمتها بل وجيش السلام التابع لها (لافيس الجزء الثاني ص ٥٥) .

(٣) فرسنل : رسالة عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٣١ – ٣٣ .

وصولهم لدى الحكم المنوط به حفظ تلك الودائع النفيسة الخطرة ، ويفرغون زمنا لأنس السلام ومباهجه .

وهنالك كانوا يستبدلون بالذهب والمر والمسك والبخور : الجلد المصنوع ، والسروج المحكمة ، والأقمشة الثمينة ، والدروع أو الجياد الكريمة ؛ وهنالك كانت تشيع الطرف المبتكرة وتذيع الأغانى وتصفو اللغة .

ولقد كانت تضرب فى هذا السوق خيمة عظيمة يتصدرها أعظم الشعراء منزلة ويجلس فيها من الشعراء مجلس القاضى المتصرف ؛ ينصت إلى أشعارهم ويصدر حكمه فيها . ومن ثم تنقش أجود القصائد على نسج رقيق من القنب أو البردى وتعلق على أستار الكعبة المقدسة .

وهنالك أيضاً كان يأتى المرء ساعياً وراء ما يخلد ذكره ، فيعلن المبرزون على الملأ مآثرهم أو يستعينون فى ذلك بشعراء يجزلون لهم العطاء ، فمن قائل يردد : « أعلن أن فلانا هو أشجع أو أسخى أو أعظم العرب » فينبرى له آخر قائلا : « بل إن فلانا يفوقه فصاحة وحكمة » . . . وهكذا يتجادلون ، كل يدعم قوله بالأدلة ، والجمهور يصدر حكمه مسترشدا بتلك الأمثلة الكريمة التى تضرب أمامه .

وهكذا ولدت المروءة فى صحارى العرب وعظم فيها السمو الخلقى . .

أوليست تلك هى خلاصة الفروسية ؟ أفليست الفروسية انطلاقا صوب المثل الأعلى وسباقا كريما نحو الكمال ؟ . . .

على أن هذه الفروسية العربية لم تكن مزية مقصورة على طبقة أو طائفة

دون أخرى ، بل كانت هى أسلوب الحياة الذى عم شعباً بأسره . ولم يطلع بها عليهم دين ، ولم يأمر باتباعها سلطان ، أو يوضع لرعايتها قانون ، ولكن ميلا طبيعيا إلى الخير هو الذى يكفل لها أن تتبوأ قلوب القوم .

وإن هدف هذا الكتاب هو تعريف الجمهور بأخلاق العرب. فمن الخسارة إذن ، وقد أخذت الشعوب تسعى إلى أن يتصل بعضها ببعض وأن يفهم بعضها بعضاً ، أن تظل فعال العرب ومروءتهم مجهولة لدى السواد الأعظم . أليست تلك العواطف النبيلة المرهفة التى تفتحت فى الشرق إبان أقدم العصور إنما تنتمى إلى الإنسانية ؟[1] أولا يزال الرجل الفاضل يحس بارتياح حقيقى عندما يلاحظ – فى جميع الأزمنة وفى جميع البلاد – أن الشر فى صراعه ضد الخير ، لم يكن صاحب الكلمة الأخيرة دائماً ، وأن الأثرة والخسة فى كل مكان قد نافحهما الإيثار وروح التضحية ؟

---

(١) ليس أبناء آدم إلا أسرة واحدة تسعى إلى نفس الغرض . وإن الأحداث التى عرضت لأمم تناءت عنا فى المكان والزمان – هذه الأحداث التى ما كانت فى الماضى لتوقظ فينا غير غريزة حب الاستطلاع ، إنما تهمنا اليوم كأنما هى أشياء تخصنا وقد ألمت بأجدادنا . ولقد كان تعرض شعب للفناء عملا مجيداً من أجل تحقيق حرية لنا ، أو حقيقة أو رأى أو كشف ، وكان تعرض فرد لمعاناة كل الآلام عملا مجيداً أيضاً من أجل إضافة ولو مثقال ذرة من ذهب لخير الإنسانية عامة . (شاتوبريان : دراسات تاريخية) .